الفصل السادس

طبقات فحول الشعراء
لابن سلام
[139 – 231 هـ]

التعريف بالمصنف:

ابن سلام هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي البصري، مولى قدامة بن مظعون الجمحي، ولد بالبصرة في سنة 139هـ وتوفي في سنة 231 أو 232هـ ببغداد.

نشأ ابن سلام في بيت يهتم بالأدب وروايته، حيث كان أبوه سلام راوية روى عنه ابنه في مواضع كثيرة من كتابه، وكان أخوه عبد الرحمن بن سلام أحد رواة الحديث الذين روى عنهم مسلم وأبو حاتم.

ودرس ابن سلام على كثير من علماء عصره وشيوخه كما درس عليه الكثير من شيوخ العلم والأدب والحديث.

شيوخـــه :

فمن شيوخه الذين درس عليهم: الأصمعي (عبد الملك بن قريب) وأبو بكر الهذلي المدني – وخلف الأحمر (خلف بن حيان) – وأبو زيد الأنصاري (سعيد بن أوس) – وسيبويه – وأبو عبيدة (معمر بن المثني) ومروان بن أبي حفصة الشاعر – والمسيب بن سعيد – والمفضل بن محمد الضبي الكوفي ويونس بن حبيب وغيرهم. وقد أحصى الأستاذ محمود شاكر في مقدماته لكتاب طبقات فحول الشعراء تسعة وسبعين شيخا لابن سلام روى عنهم في طبقاته.

تلامذته:

أما من روى عن ابن سلام وسمع منه من شيوخ الأدب والعلم فكثير، منهم أحمد بن يحيى ثعلب وأبو حاتم والمازني وأحمد بن حنبل وابنه عبد الله وأبو خليفة الجمحي ابن أخت ابن سلام، وهو الذي روى عنه كتاب طبقات الشعراء بإجازته.

ثقافته وعلمه:

كان ابن سلام عالما ذا ثقافة متنوعة ونظرة علمية فاحصة، فهو أول من أثار قضية الشك في الموروث من الشعر الجاهلي وناقشها على أسس علمية منطقية كما أنه أول من حاول أن يضع مقاييس نقدية في النظر إلى العمل الأدبي وتصنيفه وفقا لهذه المقاييس والمعايير، وبذلك أخرج النقد العربي من طور اللمحات الخاطفة والتعليقات السريعة التي تعتمد على حس المتذوق العابر.

مصنفاته:

ولم يصلنا من ابن سلام سوى كتاب (طبقات فحول الشعراء)، وإن كان ابن النديم يذكر له كتبا أخرى حيث يقول إن ابن سلام ألف كتاب الفاصل في ملح الأخبار والأشعار، وكتاب بيوتات العرب، وله كتاب غريب القرآن وكتاب طبقات العلماء الذي نقل منه أبو علي القالي في أماليه. ثم يذكر ابن النديم أن لابن سلام كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين والأرجح أن الكتابين معا يكونان الكتاب الذي بين أيدينا بعنوان طبقات فحول الشعراء.

أهمية الكتاب:

وترجع أهمية كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام إلى أنه أول كتاب في النقد الأدبي وصل إلينا كاملا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لما له أهمية علمية من حيث منهجه في التأليف والتصنيف، ومن حيث ما أثاره من قضايا نقدية على جانب كبير من الخطورة.

ليس إلى هذا فحسب ترجع أهمية الكتاب، فالكتاب مصدر ضخم لتراثنا الأدبي والنقدي جمع فيه المؤلف الكثير من الآراء النقدية التي كانت شائعة في عصره إلى جانب ما أضافه هو من اللمحات النقدية الذكية المتعلقة بالذوق الشعري هذا إلى جانب المادة الأدبية الهائلة التي جمعها في هذا الكتاب.

طبعاته:

وقد طبع كتاب ابن سلام عدة طبعات أولها طبعة المستشرق الألماني يوسف هل في مطبعة بريل بليدن باسم طبقات الشعراء (1913) وقدم له مقدمة بالألمانية، وأعادت مطبعة السعادة نشره في سنة 1920م، نشره حامد عجان الكنبي، وتعددت طبعاته بعد ذلك، وكلها يشوبها الكثير من الخلل والخلط، حتى أعاد محمود شاكر تحقيق الكتاب ونشره في دار المعارف سنة 1952م، وأعاد نشره مرة أخرى عام 1974م لمحاولة تدارك بعض ما عن له فيه من نقص.

محتوى الكتاب وأهم قضاياه:

ويضم كتاب ابن سلام مقدمة في الشعر وطبقات الرواة ثم عشرة فصول في طبقات فحول الجاهلية وخمسة فصول عن أصحاب المراثي وشعراء القرى وشعراء مكة وشعراء الطائف وشعراء البحرين وخصص فصلا لشعراء اليهود ثم عشرة فصول أخرى عن طبقات فحول الإسلام.

وبالرغم من أن المقدمة لا تشغل حيزا كبيرا في الكتاب، إلا أنها تعتبر أهم ما في الكتاب، وذلك من حيث ما اشتملت عليه من قضايا نقدية بالغة الأهمية، ناقشت قضية الانتحال في الشعر وكشفت عن مفهوم الشعر في ذلك العصر وتناولت الخلاف ما بين الكوفة والبصرة، ومشكلة اللحن حتى عند سراة الناس ووجوههم.

وبالرغم من أن ابن سلام ليس هو أول من أثار مشكلة الشك في الشعر الجاهلي وصحة نسبة معظمه، إلا أنه استطاع أن يأخذ الفكرة التي لاحظها شيوخه وعلماء عصره، وأن يعرضها على نحو علمي متكامل، حتى أصبحت القضية مرتبطة به وأصبح ابن سلام مشهورا بها.

يقول ابن سلام: "وفي الشعر مفتعل موضوع"، وبعد أن يطرح القضية يأخذ في ذكر البواعث التي أدت إلى هذا الانتحال وهي عنده كثيرة منها إن الرواة حينما تداولوا الشعر، تداولوه من كتاب إلى كتاب ولم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء، ومنها إن أصحاب السير والقصاص انتحلوا في قصصهم وأخبارهم

الكثير من الشعر حتى إنهم أثبتوا شعرا لعاد وثمود، ومنها اعتماد رواية الشعر من غير أهله والعالمين به، ومنها استقلال بعض القبائل شعر شعرائهم بعد أن مات من الرواة والحفظة الكثير، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد ذلك فزادوا في الأشعار التي قيلت.

ويرى ابن سلام ضرورة التحقق من صحة نسبة الشعر إلى صاحبه قبل إبداء الرأي فيه وأخذه عن أهل الثقة وهم أهل البادية وأهل العلم والرواية الصحيحة.

ثم تحدث ابن سلام بعد ذلك عن مفهوم الشعر ومقومات الذوق الأدبي فرأى أن الذوق الشخصي أساس الحكم على الشعر، ولكنه ذوق يستند إلى أسس من الدراسة والثقافة وسعة الاطلاع إلى جانب الخبرة الفنية المكتسبة من التمرس بالعملية النقدية والحس الأدبي المتمثل في الاستعداد الشخصي للتذوق. ذلك لأن الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم.

بعد ذلك تعرض ابن سلام لأزمة الثقة المستمرة بين البصرة وهم أهل قياس ومنطق وفيهم المعتزلة وبين الكوفة وهم أهل السنة، ولكن ابن سلام في عرضه للقضية ينتصر إلى جانب البصريين لأنه بصري فرأى أن علم البصرة هو العلم، يقول: "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب غاية".

وقبل أن يختم مقدمته أشار إلى ظاهرة بدأت تتفشى في المجتمع العربي آنذاك، وهي ظاهرة اللحن بسبب من دخل الإسلام

من غير العرب. يقول ابن سلام "فاضطرب كلام العرب، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية – فكان سراة الناس يلحنون ووجوه الناس" ثم أشار ابن سلام إلى جهد أبي الأسود الدؤلي في هذا المجال وتصديه للتأليف في النحو.

سبب تصنيف الكتاب:

وبعد أن انتهى ابن سلام من عرضه لهذه القضية شرع في تحديد موضوع كتابه ومنهجه، فيقول إنه عندما نظر في الخلاف بين الرواة والناس حول شعراء الجاهلية والإسلام والمخضرمين، ووجد أن هذا الخلاف قد تشعب، رأى ابن سلام أن يضع هذا الكتاب في تصنيف هؤلاء الشعراء في مراتب ومنازل حسب قدرهم ومكانتهم، وأنه يقتصر في تناوله على الفحول المشهورين فقط الذين وجدهم أربعين شاعرا، صنفهم في عشر طبقات، وأنه سوف يحتج لكل شاعر بما يجده له من حجة وما قاله فيه العلماء والناس والرواة.

بعد المقدمة يبدأ صلب الكتاب الذي يحتوي على تصنيف فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وفقا لترتيبهم في طبقات على النحو الذي أشار إليه ابن سلام في مقدمته.

وقد جعل ابن سلام شعراء الجاهلية في عشر طبقات، وجعل في كل طبقة أربعة شعراء وقد جعل شعراء الرثاء وهم أربعة في طبقة، كما خص شعراء القرى وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين بالإضافة إلى شعراء يهود في قسم خاص. بعد

ذلك أخذ في تصنيف شعراء الإسلام في عشر طبقات كذلك كل طبقة أربعة شعراء على نحو ما فعل مع شعراء الجاهلية، أما الشعراء المخضرمون فهم موزعون بين الجاهلية والإسلام.

ونستطيع من تصنيف ابن سلام للشعراء على هذا النحو الذي يفتقر إلى المبرر المقنع أن نتعرف على أسس المفاضلة بين الشعراء في رأيه والتي حصرها في ثلاثة هي الجودة والكم وتنوع الأغراض.

وبالرغم مما نحسه من توافر حس فني ونقدي قوي عند ابن سلام في إحساسه بأثر الجنس والبيئة والموضوع في العمل الأدبي، وهي لمحة على درجة عالية من الفهم والإدراك بالرغم من هذا اتصفت أحكام ابن سلام في غالبها بالتعميم السريع والأحكام المجردة العابرة.

ويبقى بعد هذا كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام أول خطوة في النقد العلمي المنهجي عند العرب.

مصادر ومراجع:

1- د.بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب العربي.

2- د.السعيد بيومي الورقي: في مصادر التراث العربي.

3- ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء.

4- د.محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب.

5- ابن النديم: الفهرست.

نموذج من كتاب طبقات فحول الشعراء

"وكانَ الشِّعْرُ فِى الجاهليَّةِ عِنْدَ العربِ دِيوانَ عِلْمِهِم ومُنْتَهَى حُكْمِهِم ... قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: كانَ الشِّعْرُ عِلمَ قَوْمٍ لمْ يَكُنْ لهُمْ عِلمٌ أصَحُّ مِنْهُ، فجاءَ الإسْلامُ فتشَاغَلتْ عَنْهُ العَرَبُ، وتشاغلُوا بالجِهادِ وغَزْوِ فارسَ والرُّومِ، وَلَهَتْ عَنِ الشِّعْرِ ورِوايَتِهِ. فلمَّا كَثُرَ الإسْلامُ وجَاءَتِ الفُتُوحُ واطْمأنَّتِ العَرَبُ بالأمْصارِ، راجَعُوا رِوايةَ الشِّعْرِ، فلمْ يَؤولُوا إلَى دِيوانٍ مُدَوَّنٍ ولا كتابٍ مَكتوبٍ، وألفُوا ذلك وقدْ هَلَكَ مِنَ العربِ مَنْ هَلَكَ بالمَوْتِ والقَتْلِ فحَفِظُوا أقَلَّ ذَلِكَ وذَهَبَ عَلَيْهِم منهُ كثيرٌ.

قالَ أبُو عَمْرو بْنُ العَلاءِ: ما انْتَهَى إلَيْكُم مِمَّا قالتِ العَرَبُ إلا أقلَّهُ، ولو جَاءَكُم وافِرًا لَجَاءَكُم عِلْمٌ وَشِعْرٌ كَثِيْرٌ...".

" فلمَّا راجَعَتِ العَرَبُ رِوايَةَ الشِّعْرِ، وذِكْرَ أيَّامِها ومآثِرِها، اسْتقلَّ بعضُ العشائرِ شِعْرَ شُعَرائِهِمْ، وما ذَهَبَ مِنْ ذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ. وكانَ قَوْمٌ قَلَّتْ وَقائِعُهُمْ وأشْعارُهُمْ، فأرادُوا أنْ يَلْحَقُوا بِمَنْ لَهُ الوقائعُ والأشعارُ، فقالُوا علَى ألْسِنَةِ شُعَرائِهِمْ، ثُمَّ كانتِ الرُّواةُ بَعْدُ، فزَادُوا فِى الأشْعارِ الَّتِى قِيْلَتْ. وَليس يُشْكِلُ عَلَى أهْلِ العِلمِ زِيادَةُ الرُّواةِ وَلا مَا وَضَعُوا، ولا مَا وَضَعَ المُوَلَّدُون".

[طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني، القاهرة، ج1، ص24، 25، 46]

يتحدث ابن سلام هنا عن أسباب الانتحال في الشعر الجاهلي، فيذكر أولا أهمية الشعر بوصفه فنا في حياة العرب ثم يعدد الأسباب التي أدت إلى ضياع أغلب الشعر الجاهلي فيراها في:

1- تشاغل العرب عن هذا الشعر بالإسلام، وهذا طبيعي لما فيه من مخالفة وخروج على القيم الجديدة التي طالب بها الدين الجديد.

2- تشاغل العرب عن رواية هذا الشعر بالجهاد والفتوح.

3- غياب جزء كبير من هذا الشعر لغياب المدونات التي تدونه.

4- موت الكثير من الرواة الحفظة في الغزوات وغيرها.

من أجل هذا ضاع أغلب الشعر الجاهلي، وحينما راجعت العرب تاريخها وهذا ما حدث بقيام الدولة الأموية وعودة العصبيات القبلية إلى سابق عهدها قبل الإسلام – واجهت القبائل هذه المشكلة، مشكلة ضياع أغلب شعرها الذي هو من ناحية أخرى ديوان أيامها ومآثرها ووقائعها فكان هذا مدعاة لهم للنحل، فقالوا الأشعار ونسبوها إلى شعرائهم.

ويختتم ابن سلام الفقرة بأن أوضح إن كان إدراك هذا النحل المصنوع عند أهل العلم بالشعر على النحو الذي رأيناه في فقرة سابقة.